

لم يطلب الجَمَل من أبي سهل أن يركبه، طلب منه فقط أن يجعل مخلاته عليه. سيظل أبو سهل يمشي على قدميه إلى أن يبلغ مقصده. والظاهر أن مصدر التعب ليس المشي، وإنما حمل المخللة. لقد جاء صاحبنا متجرداً من كل شيء، ما عدا من كتبه؛ ليس له زاد، وليست له دابة، كل ما يملك مخللة تحتوي على بعض الكتب. إنه متحرر من كل شيء، ولكنه لم يتحرر من الكتب التي تشده إلى الماضي، وعلامة هذا الحنين مخللة تقصم ظهره وتنهك قواه. لكي يستقبل حياة جديدة،⁽²²⁾ يتعين عليه أن يتخلّى عنها، أن يتحرر من عبوديتها، أن «يستريح من حملها»، أن يستريح منها. إن في حمل الكتب شقاء لا ينتهي إلا عندما يلقيها صاحبها على ظهر دابة.⁽²³⁾ الشقاء يكمن في الكتب، وإن من يحملها يحمل ما لا طاقة له بحمله فيتعثّر في مشيه ويقاسي ما لا يحصى من الشدائد. والراحة هي إزاحة المخللة عن العاتق والتخلص من الكتب.

عندما ينتهي القارئ من قراءة ترجمة أبي سهل، فإنه يتساءل: ماذا حدث بعد أن كلم الجمل أبا سهل؟ ماذا كان رد فعل هذا الأخير؟ هل استجاب للدعوة الموجّهة إليه؟ هل وضع المخللة على ظهر الجمل ليستريح من حملها؟ لاشك أنه لبى الدعوة لأنها، بصدورها من حيوان غير ناطق أصلاً، شيء خارق، شيء يدل على تدخل قوة تتعدى الفهم العادي للعالم وللقوانين المتحكّمة في الأشياء؛ فليس بوسع أبي سهل إلا أن يمثل للأمر ويستريح من حمل الكتب

ثم ماذا كان مصير هذه الكتب؟ ومصير الجمل؟ هل ظهر هذا الحيوان العجيب فجأةً وخصيصاً لحمل مخللة أبي سهل؟ في هذه الحالة سيرافق صاحبنا

(22) لاسيما وأنه داخل إلى المغرب، حيث سموت، حيث سيطرح عنه عبء الحياة وثقل الدنيا.

(23) بعد وفاة ابن رشد، حُمل جثمانه من مراكش إلى قرطبة «ولمّا جُمِل التابوت الذي فيه حسده على النانة جعلت تواليه تمادله من الجانب الآخر...» فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أصاله، يعني تواليه (ابن عربي، 1، ص. 154).